﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول الله تعالى :﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾المتقون : هم الذين اتقوا اللهﷻ ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه، وهم الذين يخشون ربهم بالغيب:

خـلِّ الـذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التــقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقـرن صغيرة إن الجبال مـن الحصـــــى

التقوى: حال يقيمها الله ﷻ في قلب العبد، فتكون واعظاً له من تلقاء نفسه؛ كلما همَّ بمعصية قال: اتق الله! خفِ الله! خفِ اليوم الآخر! فيردعه. تقول فاطمة بنت عبد الملك: "كان عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، يكون معي في الفراش فيذكر الشئ من أَمرِ الآخِرَةِ فَينتفِضُ كَمَا يَنتفِضُ العصفور في الماءِ، وَيَجلسُ يَبكي، فأَطرَحُ عَلَيهِ اللِّحَافَ رَحمَةَ لَهُ" [1] .

إذا أراد الإنسان أن يقيس تقواه، فلينظر إلى حاله عند غيابه عن أعين الناس. لا تقس تقواك وأنت بين الناس؛ يركعون، ويسجدون، فتركع، وتسجد معهم ، وهم يذكرون، فتذكر معهم. إذا أردت أن تقيس تقواك، فانظر إلى نفسك حينما تخلو، هل يردعك واعظ الله في قلبك أم لا ؟ هاهنا التقوى .

﴿مَفَازًا﴾ أي: مكان فوز، وقيل: متنزَّهًا، وقيل: ﴿مَفَازًا﴾أي : الجنة، كما فسرها ما بعدها:

﴿حَدَائِقَ﴾: جمع حديقة، وسميت بذلك، لأنها تحدق بالأشجار، والثمار، وأنواع ما يخرج من الأرض.

---

[1] البداية والنهاية (9/299).

﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾: خص الأعناب بالذكر، لأنه من أكرم الثمار الذي تعرفه العرب. وهو لا شك ثمرة كريمة، وفاكهة طيبة. ولكن لا يخفى أن الأمر كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما: "ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء "[٢]، الأسماء واحدة، لكن الحقائق مختلفة، فليس عنب الجنة كعنب الدنيا، اتفقت الأسماء، لكن الحقائق، والمسميات متفاوتة، حتى إن ثمار أهل الجنة التي من شكل واحد، تتفاوت طعومها، قال ﷻ ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ [البقرة:25] يعني: تكون صورته واحدة، فيظنون أنه هو الذي طعموا من قبل، فيجدون طعمه مختلفاً؛ لسعة كرم الله، وإغداقه عليهم من النعم. وعبر بهذين الوصفين ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ عن لونين من ألوان النعيم الحسي في الجنة، وهما الأمكنة البهية، والثمار الشهية .

﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ هذا لون آخر من المتع الحسية؛ وهو الاستمتاع بالحور العين، والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي تفلك نهدها، واستدار. وهذا غاية ما يكون في الجمال، والرغبة في النساء.

﴿أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ أي : متساويات الأسنان. فهم يرزقون هؤلاء الكواعب الناعمات، الأنيقات، الجميلات، التي يرى مخ ساق إحداهن من وراء سبعين حلة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال "إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ ضَوْءُ وُجُوهِهِمْ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَالزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى مِثْلِ أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَائِهَا " رواه الترمذي[٣]، ولو اطلعت إحداهن على أهل الأرض لأشرق ما بين الخافقين. قال ﷻ: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ [ص:52]، فهذا لون آخر من نعيم الجنة .

---

[٢] تفسير ابن أبي حاتم (66/1) مكتبة نزار مصطفى الباز.

[٣] سنن الترمذي (2522)، وأصله في الصحيحين صحيح البخاري (3246)، صحيح مسلم (2834) من حديث أبو هريرة دون ذكر (سبعون حلة).

﴿وَكَأْسًا﴾ الكأس: المراد به كأس الخمر، لكن أي خمر؟ قال تعالى:﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:19] يعني: لا تسبب لهم صداعاً وأذىً، وإنما هي خمر يلتذون بشربها ، لا تضيع عقولهم ولا تصدع رؤوسهم.

﴿دِهَاقًا﴾ أي: ممتلئة، ليست قاصرة ناقصة، وقيل: متتابعة، ما يكاد يشربها حتى تمتلئ من جديد، وقيل: صافية. ولا مانع من اجتماع جميع هذه الأوصاف، فتلكم الكأس، أذاقنا الله وإياكم طعمها، ممتلئة، مترعة، متتابعة، صافية .

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾أي: أنهم قد صان الله أسماعهم أن يسمعوا اللغو الذي يحصل عادة بين المخمورين؛ لأن المخمورين إذا شربوا الخمر، فاهو بالكلام السوء، واللغو، والسباب، أما أهل الجنة فإنهم لا يسمعون هذا من جراء تعاطيهم لكأس الخمر. (لغواً) اللغو: هو الكلام الفاحش البذيء، (ولا كذاباً) أي: ولا الكذب .

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ يعني: أنهم يستأهلون، لكنهم إنما نالوا ذلك برحمة الله بعملهم، فالله ﷻ، من كرمه، وفضله، ومنِّه، أنعم عليهم بهذه النعم العظيمة المتتابعة، التي أعمالهم لا تكافئ عشر معشارها، فقد أخبر النبي ﷺ قائلاً : " لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ. قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَلَكِنْ سَدِّدُوا "متفق عليه [٤] فإن قلت: فما معنى قول الله ﷻ:﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف72] فالجواب أن الباء في الآية للسببية ، يعني بسبب أعمالكم ، فالباء المثبتة هي باء السببية ، والباء في الحديث، هي المنفية، وهي باء المقابلة والثمنية.

وإن من معاني ﴿حِسَابًا﴾ ، معنى الكفاية ومنه قول العرب : " أعطاني فاحسبني " يعني : حتى قلت حسبك .

﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾ الرب: هو الذي يربي خلقه بنعمه، هو الذي ينشأ من العدم، هو الخالق، المالك، المدبر، فهو رب كل شيء، ومليكه، وخالقه، ورازقه، ومدبر أمره، فالله

[٤] صحيح البخاري (6463)، صحيح مسلم(2816) واللفظ له.

تعالى رب السموات، والأجرام العلوية، ورب الأرض، والآيات السفلية، سبحانه وبحمده، لا يخرج شيءٌ عن ربوبيته.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا﴾ مع أن المقام مقام مهول ومخوف، إلا أنه أتى بهذا الاسم الرقيق الذي يدل على الرحمة، ففيه يتنسم المؤمن نسيم الرجاء، ولا ريب أن ذكر الأسماء الحسنى في ذيل الآيات، أو في أثناء الآيات له دلالة، ألم تروا أن الله سبحانه وتعالى قال﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾، ثم قال بعده:﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ﴾ فختمها بقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة/٣٩]، فكل اسم من أسماء الله الحسنى يناسب ذكره في سياق معين.

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ٣٧﴾ أي: لا يستطيع أحدٌ أن يتقدم بين يديه بقول، إلا ما أذن به .

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ أي: إجلالاً لله، وتعظيماً لله، ومهابة .

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾أي: لكمال إجلالهم، وتعظيمهم، وخوفهم، وخشيتهم الله عز وجل، لا ينطقون ببنت﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾هذا الذي يفسح له بالكلام. ويدخل في هذا الشفاعة؛ فإن الله سبحانه وتعالى، لا يأذن بالشفاعة إلا بشرطين: أذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، فقوله:﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يدل على الشرط الأول، وهو أذن الله للشافع أن يشفع، وقوله:﴿وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ ربما يدل على الشرط الثاني، وهو ورضاه عن المشفوع له وقد دل عليه قوله:﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]

﴿ٱلرُّوحُ﴾: قيل فيه أقوال عدة ، قيل : إن الروح ملك عظيم، خلقه يوازي خلق جميع المخلوقات. وقيل : هو جبريل عليه السلام. وقيل : هم بنو آدم. وقيل : هي أرواح بني آدم. وقيل : هو القرآن. والأقرب، والله أعلم، أنه جبريل ؛ لأن الله تعالى قال في سورة القدر: (تنزل الملائكة والروح فيها). وإن كان قد وقع خلاف أيضاً، في تفسير الروح في سورة القدر، من أنهم طوائف من الملائكة، لكن نظراً لعظم خلق جبريل، وأنه سيد الملائكة لا عجب أن يخص بالذكر.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: مرجعاً وتوبة. فالإنسان يشاء، وله مشيئة حقيقية، خلافاً للجبرية الذين يقولون العبد مسير، مسلوب المشيئة، مجبور على فعله. والحق أن العبد له مشيئة حقيقية، ولكن هذه المشيئة داخلة تحت مشيئة الله ؛ لقوله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير : 28-29].

﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ النذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف. وضدها البشارة: وهي الإخبار بالأمر السار. والمناسب لحال القوم النذارة؛ لأنهم منكرون، معاندون، ويوم القيامة ليس ببعيد، قال ﷺ: "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى "[٥]، فأمرها قريب،﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب/63]. وهذا القرب قرب نسبي، لأنه منسوب إلى مجموع خلق العالم، فلا يقال: كيف قال النبي ﷺ ذلك، وقد مضى على مقولته أربعة عشر قرناً وزيادة؟ فالأمور لا ريب أنها نسبية.

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾ المرء هاهنا: هو جنس الإنسان، وذهب الحسن، رحمه الله، إلى أن المرء هاهنا هو المؤمن خاصة[٦]؛ بدلالة المقابلة، فإنه قال:﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ ﴾، فالأول هو المؤمن ، والثاني هو الكافر. فكأنه رحمه الله، جعل ذلك من باب التقسيم.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ يتمنى الكافر، والعياذ بالله، أن لو كان تراباً، أي: أن لو كان تحلل، وعاد كما كان في الحياة البرزخية. وقيل إن سبب تمنيه هذا، هو ما جاء في الآثار من أنه في يوم القيامة، يقام العدل، حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء ، من الشاة القرناء؛ لأنها نطحتها في الدنيا، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال " لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ "رواه مسلم[٧] ثم بعد ذلك يقال لهذه الحيوانات: كوني تراباً! فيتمنى الكافر أن لو صار بمنزلة الحيوانات، ليكون تراباً.

---

[٥] صحيح البخاري (5301)، صحيح مسلم(2950).

[٦] تفسير الطبري (54/24).

[٧] صحيح مسلم(2528)، أما قول (كوني ترابا) فأخرجها الحاكم في المستدرك (3231) وقال صحيح على شرط مسلم وقال الذهبي: على

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الرحمة الإلهية، فالجنة عطاء وفضل ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

الفائدة الثانية: إثبات الجنة ونعيمها الحسي والمعنوي جعلنا الله وإياكم من أهلها.

الفائدة الثالثة: الاستئناس باسم الرحمن في تقوية الرجاء، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ﴾

الفائدة الرابعة: إثبات الملائكة، وخشيتهم لربهم.

الفائدة الخامسة: إثبات الشفاعة بشروطها: ﴿ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

الفائدة السادسة:إثبات المشيئة الإنسانية، والرد على الجبرية، لقوله﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ .

الفائدة السابعة قرب أمر الساعة﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ ، فقرب العذاب، دليل على قرب الساعة.

الفائدة الثامنة: بيان أعظم الندم، أجارنا الله وإياكم، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ .

شرط مسلم.